العلم والمدارس الجامعة

كان للعلم في ربوع المشرق معالم رفيعة المنار وفراديس يانعة الثمار ايامَ دقّت الحضارة فيهِ اطنابها وبسطت العمارة عليهِ جلبابها . ولكن توالت عليهِ نوائب الزمن وابلتهُ بالحرب والمحن فدرست رسوم المدارس وذوى غصن المعارف وفقد الشرق اقوى دعامة من دعائم الفلاح والمصائب لا تأتي فُرادى

ويظهر بالاستقراء ان اكثر الامم كانت تنشئ المدارس الجامعة عندما تهبُّ من سنة الرقاد او تنتضلُ من عراقيل السياسة كما فعلت دوَل العرب في صدر الاسلام وكما فعل كثير من دوَل الافرنج حتى يومنا هذا . وهوذا مدرسة كيمردج ومدرسة لَيدِن ومدرسة ستراسبُرج من اقرب الشواهد على صدق ما نقدم . كأن الحكام الحكماء يرون في المدارس الجامعة مرهًا لجروح البلاد ومهدًا لتربية العباد فيلجئون اليها ويستشفون بها

واذا التفتنا الى التمدن في اوسع معانيهِ واصحّها رأيناهُ مبنيًا على خمس دعائم وهي العائلة (التي قال فيها ارسطو انها اساس الاجتماع الانساني وقال ليبر انها بؤرة محبة الوطن) والتجارة والسياسة والديانة والعلوم . وهذه الدعائم الخمس قائمة في البيوت والشوارع والمجالس والمعابد والمدارس وهي اساس التمدن والمؤيدة له والمحافظة عليهِ . فاذا صحّت آداب العيال وراجت سوق التجارة ونفذت كلمة الحكام وذاعت فضائل الديانة وتمّ انتشار المعارف فالاجتماع الانساني على افضلهِ والاّ فالفساد مسرع اليهِ والدمار يتهدّدهُ

والدنيا مدرسة كبيرة اساتذتها الحرب والسلم والعسر واليسر والدين والكفر والفضيلة والرذيلة . وكتبها التقاليد والعوائد والامثال والنوادر والانصاب والهياكل والنقوش والتماثيل والدروج والاسفار والاغاني والاشعار . وتلامذتها الناس كلهم من رفيع ووضيع وغني وفقير . ودولة المعارف اوسع دولة ولواؤها منشور على جميع الناس من كل الالسنة . وهي قديمة وسلطانها قديم في الدنيا ولم تنفرّد بهِ امة دون أخرى فقد كان في بابل ومصر ولم يزل في الصين واليابان . وما الاوربيون بمبدعين في الارض ولا هم اوّل من رفع منار المعارف ولكنهم فاقوا غيرهم الآن في الاجتهاد والتحصيل ونحن بنورهم مهتدون ومن بحار علومهم مرتشفون . حقيقة حاشا ان ننكرها ونعمةٌ ابى الله ان نكفرها . وقد تبيّن لهم ولمن كان قبلهم من الامم الشرقية التي رفعت منار العلم ان المدارس الجامعة هي وحدها المكمّلة بانماء المعارف وتمحيصها ونشرها وتخليدها

ولما كانت هذه الغايات الاربع من اسمى ما يتوخّاهُ البشر رأينا ان نبسط الكلام عليها معتمدين على ما علمناهُ الاختبار مدة سنوات عديدة وما عثرنا عليهِ من اختبار غيرنا

فالغاية الاولى وهي انماء المعارف وتوسيع نطاقها لا تتمُّ الاّ اذا كان رئيس المدرسة حكيمًا حازمًا متضلعًا بكل العلوم التي تُعلَّم في مدرستهِ خبيرًا باساليب التعليم حتى اذا مرض استاذ من الاساتذة او غاب لسبب آخر يقوم مقامهُ . وكان الاساتذة من اهل السعي والجد يبحثون في مسائل العلم نهارهم وليلهم ويضحّون على مذبحهِ المال والراحة والصحة والحياة . وهذا شأن الاساتذة الكبار في كثير من المدارس الجامعة في اوربا واميركا على ما يظهر من كتاباتهم واكتشافاتهم لانهم لم يتركوا مسألة من مسائل الرياضيات ولا فرعًا من فروع الطبيعيات ولا مبحثًا من مباحث العقليات الاّ سبروا غورهُ وحلّوا مشكلاتهِ او صبروا على تعاصيهِ صبر الكرام وترقّبوا لهُ الفرص عساهم يزيلون ما فيهِ من الغموض والابهام . ولكنهم لا يستسهلون ذلك ولا يقدمون عليهِ غالبًا الاّ اذا توفّرت لهم اسباب المعاش وكانوا غير طامعين بجمع الاموال ومباراة الاغنياء فقد قيل طالب علم وطالب مال لا يجتمعان وكان كلٌّ منهم ميّالاً بالطبع الى العلم الذي يعلمهُ مستعدًّا لهُ

وهذه الشروط مرعيّة في كثير من مدارس اوربا وبعض مدارس اميركا ولكنها غير مرعيّة في البعض الآخر ولا في اكثر مدارس المشرق . فقد شهد كلارك في جريدة العلم العام ان اكثر روساء المدارس في اميركا يُنتخَبون من طغمة القسوس الذين لا المام لهم بكثير من العلوم التي تُعلَّم في مدارسهم او هم متعصّبون عليها ومناقضون لها ولم يُنتخَبوا الاّ لمهارتهم بالوعظ او لاشتهارهم بالتقوى او لانهم من زعماء الحزب القابض على زمام المدرسة . وان كثيرين من الاساتذة يستعدون لعلم من العلوم ثم يعيّنون لتعليم علم آخر لا يعلمونهُ ولا لهم شغف بهِ وكثيرًا ما يتوقف انتخابهم للتعليم على معتقدهم الديني لا على اهليتهم العلميّة . وقال ايضًا ان احدى المدارس الاميركية اشترطت على اساتذتها ان يعلّم كلٌّ منهم اي علم ارادتهُ . وهذا منتهى الحماقة . فاي انسان يختار رجلاً لبناء بيتهِ بناء على مهارتهِ في الكتابة واي تاجر يختار كاتبًا لمسك دفاترهِ بناء على مهارتهِ في الحدادة واي دولة تفرض على كل رجل من رجالها ان يتولّى القضاء او قيادة الجيش او تخطيط الاراضي او اي عمل ارادتهُ من الاعمال القضائية والسياسية والادارية حسبما تشاء وتختار لا حسب استعدادهِ واهليتهِ . فعلى مَ لا يجري اصحاب المدارس في اختيار الروساء والاساتذة مجراهم في بقية الاعمال فيناطون الرئاسة باهلها والتعليم باهلهِ

ونحن قد رأينا اساتذة قد استعدوا لفروع مخصوصة من العلم ثم نيطت بهم فروع أُخرى لم يستعدوا لها ولا هم فيها راغبون ولكن حُكِم عليهم بقانون اعمى لا يراعي خير الطلبة وبروساء

يجهلون العلم والتعليم

واذا جربت المدارس الجامعة مجراها القانوني الذي اشرنا اليهِ فاعطت الرئاسة لمستحقها واناطت بالتعليم رجالاً مشغوفين بهِ فهناك الخير العظيم والنفع العميم لان المدارس الجامعة تعلّم الطلبة او يجب ان تعلمهم كل ما يُعلَم عن جسد الانسان وهذا ضروري جدًّا لكي يعيش الناس عمرًا طويلا بالصحة والراحة. فقد قال احد كبار الفسيولوجيين ان الانسان خلق ليحيا مئة عام وهو لا يحياها لانهُ لا يجري بحسب نواميس الصحة. وقال آخر ان اكثر الادواء يمكن تجنبها اذا روعيت شروط الصحة وقد ثبت الآن انهُ يمكن اجتناب اكثر الاوبئة التي كانت تفتك بالبشر فتكًا ذريعًا. وقد أُوجدت وسائط كثيرة لتخفيف الآلام او ازالتها. وسيتغلب الناس يومًا ما على اكثر الادواء التي تصيبهم وتمرر كاس الحياة

وتعلمهم ايضًا او يجب ان تعلمهم كل ما يتعلق بنفس الانسان وعقلهِ وتبيّن اسباب القيود التي قيّدت الامم ببعض العادات والافعال ادهارًا طوالاً وترشدهم الى كيفية معالجتها لكي يتحرّروا منها حريّة صحيحة مؤسسة على السنن الراسخة والقوانين الصحيحة

وتعلمهم لغات غيرهم من البشر اكي يطّلعوا على افكارهم واقوالهم و يستفيدوا من اختبارهم. وما تعلُّم اللغات القديمة ببضاعة مزجاة كما يظن البعض فان اهل هذا العصر قد استفادوا من درس اللغة المصرية والبابليّة والسنسكريتيّة والعبرانية والعربية فوائد ادبيّة لا تقلّ عن فوائد علم الكيمياء المادّية عند من يقدّر الامور بقيمتها الحقيقيّة لان افضل دروس الانسان الانسانُ نفسهُ ودرس الانسان لا يتم الاّ بدرس ماضيهِ وملابساتهِ كلها وما تقلّب عليهِ من الشؤون والاحوال

وتعلمهم العلوم الرياضية كلها حتى الفروع التي لم يجد لها البشر فائدة حتى الآن رجاء ان توجد لها فوائد جمّة كما وجدت فوائد الهندسة والمثلثات والخروطات بعد اكتشافها بقرون كثيرة. ومعلوم انهُ لولا العلوم الرياضية العالية ما امكن الانتفاع بالاكتشافات الحديثة في الحرارة والنور والكهربائية. فان الاتفاق يكشف للعالم او للصانع سرًّا من اسرار الطبيعة ولكن الدرس الكثير والسهر الطويل يفرغان هذا الاكتشاف في قالب النفع. والحقُّ ان كل الآلات البخارية والبصرية والكهربائية خلقتها عقول العلماء واوحت بها الى الصنّاع فنقلوها بايديهم تمثيلاً

وتعلمهم العلوم الطبيعية على اختلاف انواعها فيتضح لهم الكثير من شرائع هذا الكون وتجلي لهم الحقائق فيسيرون على هدًى في كل اعمالهم. وفي العلوم الطبيعية فروع كثيرة الاشكال عسرة الادراك يظنها الانسان قليلة الجدوى وبحسب اشتغال المدارس الجامعة بها ضربًا من العبث ولكن الذين يعلمون صعوبة الكيمياء الآلية ثم ينظرون الى الفوائد الجمة التي نجمت في هاتين

الا نفين من التدقيق في درسها لا يرون عيبًا في شيء من العلوم والفنون

وتعلمهم ايضًا علومًا أخرى لا يسعنا وصفها . ثم تعلمهم ان العلوم كلها لم تزل في طفولية ما وتكتب على جبين كل واحد منهم "عرفتَ شيئًا وغابت عنك اشياء" لان كل ما عرفه البشر من الحقائق العلمية لا يحسب شيئًا بالنسبة الى ما سيعرفونه اذا واصلوا السعي والجد

والغاية الثانية تمحيص المعارف وهي من اوّل غايات المدارس الجامعة لان معارف البشر قلما تنزهت عن الخطإ والحقائق التي اكتشفوها قلما كانت خالصة من العيب ولكن العلماء محّصوها بنار الامتحان غير مكترثين لما يقوله المقلّدون والمتعصبون للآراء القديمة . وكلام الانتقاد مؤلم وعين النقّاد تتشوّف الى العيوب ولكن لولا الانتقاد والتمحيص لجازت على الناس اباطيل كثيرة بل لالتبس الحق بالبطل

الغاية الثالثة نشر المعارف واذاعتها وهذه الغاية واسعة النطاق بعيدة المرمى لا تستتبّ لمدرسة جامعة الاّ اذا عمّمت غايتها ونفت عنها التعصّب الديني واباحت لاساتذتها وتلامذتها ان يدينوا باي دين ارادوا غير طالبة منهم الاّ القيام بواجباتهم في التعليم والعلْم . وهذا رأي كثيرين من اكبر كتّاب هذا العصر وقد صرّح به رئيس مدرسة جونس هبكنس الجامعة في خطبة الرياسة التي تلاها منذ شهرين وقال ما مفادهُ ان مدرستهُ تفتخر باعطائها الحرية الدينيّة لكل اساتذتها وتلامذتها . ونحن نقول ان كل مدارسنا العالية في مصر والشام تفتخر هذا الافتخار الاّ المدرسة التي كانت في مقدمتهنّ فانها نزعت عن هذه الخطّة لغاية نخجل من ذكرها والله اعلم بذات الصدور فانقلبت عن غرضها الاول وهو نشر العلوم والمعارف الى إلباس الطلبة رداء مذهب مخصوص . وهذا أمر لا يسع اصحابها انكارهُ وجرائد اميركا تطنطن فيهِ . وهذه الجرائد تذكر امورًا كثيرة لا صحة لها على الاطلاق كما يظهر لمن يراجع الاعداد الاخيرة من جريدة النورث مشنرتي الاّ انها قد صدقت في قولها ان غاية المدرسة الدين اكثر من العلم . وهذا الغاية لو طُلبت في طريتها ولكن ألا يعلم الذين يقصدون هذه الغاية أن الدين لا يموت والتقوى لا تُعدَم والكفر لا يتأصّل والنفاق لا يظهر الاّ حيث يفو بزر الرياء وتُمسَك الحرية الدينيّة ويجبر الانسان على اعتناق هذا المذهب او ذاك بالوعد او بالوعيد

وهناك مسألة أخرى لا بد من مراعاتها لكي تتمكن المدارس الجامعة من نشر المعارف وهي اعتمادها على لغة البلاد التي يراد نشر المعارف فيها . وكنّا في غنًى عن ذكر هذا الامر لانهُ بديهي لا يُنازع فيهِ لولا ان بعض الاجانب الذين اتوا لنشر المعارف في المشرق قد عدلوا عن التعليم بلغاتهِ تخلُّصًا من مشقّة الدرس والتأليف واستئثارًا بمناصب التعليم جيلاً بعد جيل حتى اذا مات

منهم سيّد قام سيد وتوطّنَ لتنفوذ كلمة الدولة التي يريدون تنفيذ كلمتها ونشر لوائها ولو ادبيًا لان اللغة دعامة الدولة. ففازوا بهذه الغايات الثانوية ولكنهم اضاعوا الغاية الاولى وهي اشرف من كل غاية

الغاية الرابعة والاخيرة تخليد المعارف. وقد شرع في ذلك المصريون والبابليون واقتفى آثارهم الرهبان والمشيخة فخلّدوا علوم السلف في صناجم ودروجم ورقوقهم واسفارهم وجرت عليها المدارس الجامعة حتى عصرنا هذا فهي التي تبحث في آثار الاولين وتحييها وعليها المعوّل في تأليف الكتب والجرائد التي تنشر علوم المتأخرين وتخلدها

هذه هي جل غايات المدارس الجامعة ولم نتعرض لغايات المدارس الدينية والطبية والفقهية والزراعية والصناعيّة لاننا اردنا بالعلم العلم المجرّد لا الفنون المعاشيّة

احياء الاموات

شاع عند الاطباء منذ زمان طويل نقل الدم من شخص قوي البنية الى شخص آخر ضعيف او مشرف على الموت لتقويته او لاطالة حياته. ومنذ مدة وجيزة خطر لبعضهم ان يمتحن فعل دم الاحياء بالاموات فاجرى الامتحانات التالية ونشرها في جريدة دنفر اليومية ثم نُشرت في جريدة السينتفك اميركان فعرّبناها عنها ونحن نودّ ان يكررها قراؤنا الاطباء لانها سهلة الاجراء كبيرة الفائدة

الامتحان الاول. ربط الممتحن كلبًا صغيرًا وفصدهُ في شريان كبير في عنقهِ وترك الدم يجري حتى نزف كلهُ ومات الكلب ويبس. فتركهُ ثلث ساعات ميتًا يابسًا في غرفة حرارتها على سبعين درجة فارنهيت فاشتد برد جسمهِ وزاد يبسهُ. ثم وضعهُ في ماء فاتر حرارتهُ على ١٠٥ فارنهيت وفركهُ جيدًا حتى لانت اعضاؤهُ كلها بعد يبسها وادخل في فمهِ انبوبًا من الصمغ الهندي وصبَّ فيهِ ثمانين درهمًا من الماء السخن حتى نزلت الى معدتهِ. وكان معهُ اثنان فاتى احدهما بمنفخ ذي مصراعين وادخل قمهُ في قصبة الكلب ليُدخل الهواء الى رئتيهِ ويخرجهُ منها واتى الآخر بكلب كبير من كلاب نيوفوندلند وربطهُ بجانب الكلب الميت وفصدهُ واوصل بين شريانهِ المفصود وشريان الكلب الميت ثم شرع الثالث في اعمالهِ الاول في تحريك اعضاء الكلب حتى يدور الدم فيها بسهولة. والثاني في ادخال الهواء الى رئتيهِ واخراجهِ منها بالمنفخ والثالث في نقل دم الكلب الحي الى بدن الميت. ولما صار الدم المنقول الى بدنهِ نحو مئة وستين درهمًا ظهر شيءٌ من